في وحدة الفولكلور العربي

أبو زيد الهلالي والفولكلور المدمس !

بقلم شريف الراس

الفنون الشعبية تعبير جمالي صادق عن روح عامة هي روح الجماعة ، وهو تعبير عفوي مباشر يعطي الصورة الصادقة الاولى عن الجماعة التي تبدعه ، وهذا سر استمراره ..

واذا كانت مظاهر هذا التعبير ـ كفنون الانشاء ورواية الملاحم والقصص الشعبي والرسم والزخرفة والصناعات الشعبية والرقص وكافة الفنون الشعبية الاخرى ـ واحدة لدى فئات الشعب العربي في جميع اقطاره ، فان الروح الجماعية التي ابتدعت هذا التعبير روح شعبية واحدة ، لانه ـ كما قلنا ـ تعبير صادق عفوي مباشر ، بريء عن الزيف.. ومعنى هذا ان ثمة دعامة واقعية جبارة تؤكد وحدة الشعب العربي ، هي وحدة فولكلوره . وهي كواقع حي ، أقوى سندا واعرق جذورا من كافة الدعوات السياسية او الفكرية التي « تؤمن » بالوحدة العربية .

وبمعزل عن الدوافع القومية جميعا ، انا ادعي بان الفولكلور العربي يكون كلا واحدا ، من المحيط ، الى الخليج ، وحتى في مناطق عربستان التي تسيطر عليها ايران اليوم ، وفي كيليكية ولواء اسكندرون الخاضعين للحكم التركي اليوم ، في كافة اقطار الوطن العربي وقراه ، يعيش ويستمر فولكلور واحد ، وتسود في الحياة عقلية واحدة ووجهة نظر واحدة ، وتتبدى سبل في التعبير الفني ـ على المستوى الشعبي ـ واحدة ايضا . ولا اعتبار لاختلاف الايقاع التعبيري للفنون الشعبية العربية بين قطر وقطر وتنوع مظاهره ، بل ان هذا الاختلاف ولتنوع وتعدد التلونات المظهرية في الفولكلور العربي ـ على مدى اتساع رقعة الوطن وتنوع بيئاته الجغرافية ـ انما كل ذلك مظهر غني تكاملي رائع لهذا الفولكلور الذي ادعي بانه يصدر عن نبع واحد ، وعن ايديولوجية تكوينية عامة واحدة.

وهذا الادعاء ، او هذه الدعوة ، لم تتمكن لدي بسبب من اتصالي المباشر بعدد كبير من الفنانين الشعبيين العرب ، او بسبب من اهتمامي بمتابعة اشكال الفولكلور في اكثر الاقطار العربية وتذوقها ومحاولة درسها ومقارنتها بمثيلاتها ، فحسب ، وانما تمكنت لدي الدعوة ـ او الادعاء ـ لوحدة الفولكلور بفضل دعاة الاقليمية بهذا الخصوص ، وما اكثرهم . كما ان المحاولات المماثلة التي اصبحت عريقة ناجزة اليوم لدى شعوب عديدة، كالالمان والفنلنديين ، والتي دفعت بعض الفولكلوريين الالمان ـ مثلا ـ لان يلاحقوا مظاهر فنونهم الشعبية القومية في غابات الهند ، كل ذلك اثر في دعواي .

وانا لا ازال الح على كلمة « دعوى » في دعوتي للكشف عن اصول ومظاهر وحدة الفولكلور العربي لان دعاة الاقليمية الفنية يريدون ذلك ، وبالحاح ايضا ، كما ورد في المقدمة التي وضعها الاستاذ الجليل امين الخولي بين يدي كتاب الدكتور عبد الحميد يونس : « الهلالية في التاريخ

والادب الشعبي » ، قال :

« ان فهم البيئة أشد ما يكون لزوما للفهم الادبي والدس الادبي ... وتلك واحدة من الدعائم التي يقوم عليها منهج الامناء في الدرس ، ويكون له ما بعده من تقرير اقليمية الادب منهجا مصححا ، قد نافحت ـ يا عبد الحميد ـ عنه ، بحديثك عن مصطنعي البحث عندنا ، ممن لا يعنيهم الوعي الصحيح على فهم هذه الاقليمية الادبية ، وضرورة اتخاذها اصلا علميا للفهم الادبي والدرس الادبي ، فذكرت انهم لا يزالون يمضون على منهجهم القديم الساذج في النظر الى رقعة المتكلمين بالعربية على انها وطن واحد متجانس الخصائص والصفات ، وان الناس الذين يضطربون في هذه الرقعة مقيمين ومتنقلين ، وان تبلبلت السنتهم وتباينت منازعهم وطبقاتهم ، واختلفت قسماتهم وملامحهم ، تضمهم ارومة واحدة . الى نهاية تلك الدعوة الخاطئة .. فكانت دراستك هذه متممة لطريقك في التمكين لهذه الفكرة الاقليمية .»

ولا يهمنا ، ونحن نبغي البحث عن الحقيقة ، ان يكون قائل هذا القول « كبير الامناء » او احد تلاميذه « الامناء » ، وانما يهمنا ان نتحرى الدقة والموضوعية لنذرأ عن انفسنا غضب الكبار .. كما لن نتزلف الدكتور عبد الحميد يونس ـ حسب الطريقة اللئيمة الدارجة اليوم ـ وانما سنكشف له عن خطاه صراحة ودون مواربة ، فهو رجل سيكون له اثر كبير في

مصير الفولكلور العربي بعد ان حصل على كرسي خاص لتدريس هذه المادة في جامعة القاهرة . وهو قد كان جريئا وصريحا حين قال : « ... للاسف الشديد راينا فريقا من الباحثين عندنا لا يزالون على منهجهم القديم في النظر الى رقعة المتكلمين بالعربية على انها وطن واحد متجانس الخصائص والصفات ، وان الناس الذين يضطربون في هذه الرقعة ، مقيمين ومتنقلين ، وان تبلبلت السنتهم ، وتباينت منازعهم وطبقاتهم ، واختلفت قسماتهم وملامحهم ، تضمهم ارومة واحدة ، ولم يصبهم في طرائق الفكر والشعور تبدل او تحوير خلال العصور والاجيال ، فاثرنا ان نتابع طريقنا في التمكين لهذه الفكرة الاقليمية من ناحية ، والعمل على مسايرة النهضة القومية الديمقراطية من ناحية اخرى » .

ولهذا الغرض درس الدكتور يونس « تغريبة بني هلال » ، احدى اهم ذخائر الفولكلور العربي ، وبذل جهودا واسعة لتاكيد اقليميتها وتبيان « مصريتها » ، وليطلب الينا ان نسلم بان « بقاء الخطوط البارزة في السيرة الهلالية على حالها انما يعني مسايرة هذه الخطوط للروح القومي المصري من ناحية ، ولفلسفة الحياة التي درج عليها المصريون في جميع عصورهم من ناحيةثانية ، وملاءمتها للتقاليد القصصية المتوارثة في هذه البيئة من ناحية ثالثة » .

ويتساهل الدكتور يونس احيانا في عروبة الساكين ابطال سيرة بني هلال فيقول : « وان كانت البيئة المصرية قد احتفظت لاشخاص هذه السيرة باسمائهم وكناهم وبعض ملامحهم ، فانها مصرتهم ، وقد مر بنا ان الاحتفاظ بازيائهم العربية سمة من سمات الشعور بالذاتية المصرية المستعربة المغايرة للترك ومن لف لفهم من الحكام » .

وقبل ان نضع يد الدكتور يونس على الاراء العفوية ـ ولذلك كانت سليمة ـ التي وردت في كتابه والتي تعد حجة لدعاة وحدة الفولكور العربي ، لا حجة عليهم ، احب ان اذكر بان ، بعد البحث الطويل ، استطاع ان يربط السيرة الهلالية بما يسميه العقلية المصرية لان السيرة « تحدد العدد في الافراد والمجموع بمضاعفات الرقم تسعة. فنذكر ان خليفة الزناتي قتل من امراء الهلالية تسعين فارسا ، وان جيش الهلالية كان اربع تسعينات الوف ،، وهكذا . والرقم تسعة كما هو معروف من الارقام المستقرة في اخلاد المصريين منذ عهد جد قديم » .

هذه اقوى حجج الكاتب على مصرية سيرة بني هلال .. وهي حجة قد تذكرنا بذلك الكاتب الذي اراد ان يبين « خصائص الشعب المصري » فقال مما قال : الشعب المصري يحب السلام .. آسلام » . سامحه الله ، وسامح ايضا الكاتب الاخر الذي كشف عن « القومية المصرية » في قدر الفول « لانهم جميعا ياكلون الفول المدمس » ..الخ

*

لا خلاف في ان الادب الشعبي عموما ، والمأثورات القصصية المتداولة خصوصا ، من اهم اعمدة الفولكلور وافصحها بيانا عن عقلية الشعب ومعتقداته وابعدها اثرا في ذوقه وتصوراته الجمالية والاخلاقية . ومعروف عن المجتمع العربي انه من اغنى المجتمعات بالثروة الفولكلورية القيمة ، ومعروف ايضا ان ادبنا الشعبي من اغنى الاداب المماثلة واشدها تميزا وافصاحا عن روحه المبدعة الفذة ، ـ وهذا سر انتشاره عالميا ـ، اذ ان ادبنا الشعبي فيه، « من الحرية والمرونة والقدرة على الاخذ والعطاء ما يجعله يتحدى الخلاف الديني والخصام الحربي والمغايرة العنصرية . ومن الملاحظ ان تيار الادب الشعبي العربي كان قوي التاثير في اقاليم البحر الابيض المتوسط من ايطاليا واسبانيا وجنوبي فرنسا ، بحيث ادخل عنصرا جديدا يستطيع ان يقف الى جانب العنصر اللاتيني ، بل يغلبه في بعض الاحيان » .. اما في العصور الحديثة فقد اصبح الفولكلور العربي مصدر الهام سخي لعدد كبير من فناني العالم .. ولا نأتي بجديد اذا قلنا ان ابرز محفوظات الادب الشعبي العربي هي السيرة الهلالية بفصولها اجزائها العديدة والسير ـ او الملاحم ان شئتم ـ : سيف ابن ذي يزن ، والظاهر بيبرس « المصري الشركسي الذي حوله الشعب الى عربي قح ثم آمن به » .

وقد يصح الخلاف في عروبة اي من هذه السير او الملاحم الاالسيرة الهلالية فهي تستعصي على اي خلاف من هذا النوع وتتمنع على الانسحاب نحو الاقليمية تمنع استحالة .

فالسيرة الهلالية لا ترافق رباب الشاعر في مقاهي القاهرة العتيقة فحسب . ولا تتناقلها الالسن في سهرات الصعيد وقرى الدلتا فحسب ، وانما هي تروى ويصغى اليها في كافة القرى والمجتمعات الشعبيةالمنتشرة في ارجاء الوطن الواسع ، في مراكش وفي الجزائر وفي تونس . وفي جنوب الجزيرة وفي الشام والعراق، لا بل ان قبائل عربستان لا يزالون يسمرون على ملحمة بني هلال ، ولم يصل الى علمنا انهم استساغوا السمر على حكايات الشاهنامة « الايرانية » . وكذلك الامر في كيليكية والاسكندرون ، حيث لا تزال حلب تصدر اليهما ـ تهريبا ـ القصص الشعبي ، لا بل ان الشاعر الكبير الاستاذ سليمان العيسى ، حين كان فتى من فتيان انطاكية ، حاولان يقلد ملاحم الهلالية بابداع ملحمةشعبية تقص حكاية الفلاح البطل « جميل الحايك » . معنى هذا ان السيرة الهلالية كانت في انطاكيةاكثر انتشارا واقوى ازدهارا وتاثيرا منها في مصر ، مثلا ..

اذن فحجتنا الاولى على عروبة السيرة الهلالية ، وبراءتها من الاقليمية المزيفة ، كونها لا تزال منتشرة في كافة ارجاء الوطن الكبير ، متغلغلة في ضلوع كل مجتمع شعبي عربي ، نشيطة في اداء وظيفتها الفنية كتراث يضم قيما اخلاقية وجمالية عربية محضة .

هذا اولا ..

واذا كان مبدع هذه السيرة او مبدعوها ، من سكان اقليم مصر في القرن السادس او السابع للهجرة ،وهي قضية لا يمكن اثباتها ، فان ذلك دليل ثان على عروبة هذا الشعب الذي انتج ادبا شعبيا عربيا محضا ، عربيا بحيث ينتشر في كل قطر ويزدهر ويعشش في كل القلوب .. ثم ان المجتمع

من منشورات دار الآداب

الحي اللاتيني(رواية) للدكتور سهيل ادريس

الخندق الغميق (رواية) للدكتور سهيل ادريس

دار الآداب ص.ب ٤١٢٣

العربي في القرن السادس او السابع كا ن مجتمعا متماثلا في كافة الاقطار ، يعتقد عقيدة واحدة ويؤمن بقيم ومثل في الحياة واحدة وبواجه مشاكل واحدة ، الامر الذي لا يحتاج الى عناء في اثباته .

ولكن لم كل هذه الحجج وهذا العناء ، والسيرة الهلالية ذاتها بين ايدينا صريحة في سماتها ودمائها العربية ، اكاد اقول سماتها ودمائها البدوية الصحراوية الجاهلية ؟؟!.. انني ان اعرض اهم هذه السمات من خلال اجتهادي ، وانما ساعرضها كما وردت في اجتهاد الدكتورعبد الحميد يونس ذاته كي نحسم المشكلة اولا . ونضع يد الدكتور على اخطائه ثانيا ، ونبين للقارىء فشل كل محاولة فكرية في اقلمة اية ظاهرة عربية ، وفي الفولكلور خصوصا .

فالهلاليون ، كما جاء في كتاب « الهلالية في التاريخ والادب الشعبي » قبائل عربية ، من بدو الجزيرة ، معروفو النسب ، كان لهم ايام الجاهلية شان وخطر ، ومنهم قبائل وعشائر هاجرت الى بلاد الشام ومصر قبل الاسلام ، وكان لهم ايام الدعوة المحمدية وفي حروب الردة والفتوحات شان وخطر ، وازدادت هجراتهم الى المناطق المفتوحة ايضا .. ثم كانت هجرتهم ـ او تغريبتهم ـ التاريخية الواسعة بعد ذلك الى العراق والشام ومصر وليبيا وتونس ، وقد تركوا بعضا منهم في كل قطر مروا به ، ومنهم من آثر البقاء في الصعيد . اذن فهم عرب انتشروا في الجو العربي الجديد الواسع ، لا بل انهم كانوا « من المعنين في البداوة ، المعتزين بالعصبية ، لانهم كانوا يقاومون عوامل الاستقرار والاندماج . وانهم لم يتغيروا في جميع المسارح التي حلوا فيها . فقد كانوا في نجد والعراق والشام ، كما كانوا في مصر وافريقية وبلاد المغرب »ص٧٨.

ومن صفاتهم العربية انهم يعتزون بخيولهم ويغالون في ذلك « حتى اصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل ادنى الى القرابة ، فيها من التعاطف والحب ما بين الاقرباء.. ودونت الكتب اسماء كثير من خيلهم المشهورة كالاحزم والازور واعوج الاكبر ، اشهر خيول العرب واعظمها ذكرا على الاطلاق .. وقد بلغ من وثوق الصلة بين الخيل واصحابها ان الفارس منهم كثيرا ما كان يعرف بفرسه لابقسماته وزيه » ص ٨٩ . ـ ويقال : « ان ديابا لم يبك احدا من بنيه كما بكىفرسه عندما نفقت ، وظل يذكرها حتى اذا حضرته الوفاة كانت وصيته ان يدفن الى جانبها في المكان الذي اختار لها » ص ١٧٢

ومن صفاتهم العربية ان الفارس منهم كان يحافظ على سلاحه محافظته على حياته ، ويهتم في ان « يصونه من التلف ، وان يتعهده بالصقل والاصلاح حينا بعد حين. وكانوا يتصورون هذه الاسلحة وكانها كائنات تنبض بالحياة ، سكبوا عليها من نفوسهم شعورا ووعيا ، ووصفوها بالتمييز ومعرفة العدو والاقدام والحماسة ، وما الى ذلك من اوصاف الفرسان عندهم » ص ٩٠

ثم يقول : « تعد سيرة بني هلال من اروع القصص في هذه البيئة المغايرة « يقصد المصرية » لبيئتها الاولى التي انشاتها « يقصد العربية » ... فما الذي مكن لهامن الحياة في هذا المحيط ؟؟ » ص ١٧٧ .

اليكم جوابه الذي يكاد يكون اعترافا وتسليما ، قال :

« لقد تسلمت البيئة المصرية سيرة بني هلال وغيرها من السير ، بعد العصر الفاطمي، او بعبارة اوضح ، بعد ان اصبح السلطان في يد غير العرب . ولهذا دلالته على تلك الخصيصة العامة التي نريد ان نتبينها ، فان الشعب المصري ، قد تم استعرابه واسلامه ، اصبح يقف من الدول الحاكمة موقف الشاعر بذاتيته ، المحتاج في الوقت نفسه الى التعبير عن هذه الذاتية . فدفعه ذلك الى انتخاب احداث بعينها تصلح للترجمة عن مشاعره القومية وهي كما نعلم ملونة بالعروبة ، فاهتدى الى عنترة والى سيف بن ذي يزن والزير سالم والى بني هلال . وهذا يدل على ان القومية المصرية ذات الطابع العربي لم يكن يعنيها التفريق بين عدنانية وقحطانية بقدر ما تعنيها الصفة العربية العامة . بل ان هذا الشعور القومي كان يطبع العناصر غير العربية بطابعه كما فعل مع الظاهربيبرس، اذ انتزعه من الجركس ووصله بالعرب . وعلى هذا فالخصيصة الاولى التي اعانت على تمصير السيرة الهلالية هي انتصار عروبتها » ص ١٧٨

ارايتم الى تاكيده عروبة شعب مصر الذي احتضن اثرا ادبيا شعبيا وحافظ عليه ووجد فيه مثله ومطامحه وصورة لنفسه ومشاعره ؟

ان الدكتور عبد الحميد يونس يقع في مثل هذه المزالق الطيبة التي تخرج به عن نطاق الاقليمية المصطنعة الى ميدان القومية العربية الرحب الواضح ، في كثير من صفحات كتابه عن الهلالية . اما الهلالية ذاتها فتظل مستعصية على التاقلم والتضييق والتصغير .. وقد ثبت نهائيا ان ابازيد لم ياكل فولا مدمسا ، وكذلك الزناتي ودياب والجازية ، تلك البدوية التي احبت كلمصريةان تكون مثلها ..

وبعد ، فان لدعاة الاقليمية في الادب الشعبي العربي خصوصا ، وفي كافة مظاهر الفولكلور العربي عموما ، فضلا كبيرا في انهم يبينون لنا استحالة تفتيت هذا الفولكلور ، وبناء منظومات فولكلورية اقليمية .. على ان الفولكلور العربي لم يصبه اي اذى من محاولاتهم التفتيتية ، اذ انه لا يزال تراثا غنيا هائلا ، لم تطله الدراسات الجدية بعد .

القاهرة — شريف الراس

مجموعة اعلام الموسيقى

تعرض حياة عباقرة الموسيقى وأثر المرأة في حياتهم

صدر منها	ث.ل
١ ـ بتهوفن ترجمة : الدكتور علي شلق	١٥٠
٢ ـ شوبان « : خليل الهنداوي	١٧٥
٣ ـ تشايكوفسكي « : الدكتور فؤاد ايوب	١٥٠
٤ ـ كورساكوف « : « « «	١٥٠
٥ ـ ليست « : بهيج شعبان	١٥٠
٦ ـ موزارت « : « «	١٥٠
٧ ـ باغانيني « : « «	١٥٠
٨ ـ فاغنر « : الدكتور فؤاد أيوب	٢٠٠
٩ ـ شوبرت « : بهيج شعبان	٢٠٠
١٠ ـ الفن الغنائيعند العرب تأليف : نسيب الاختيار	١٥٠

الناشر : دار بيروت